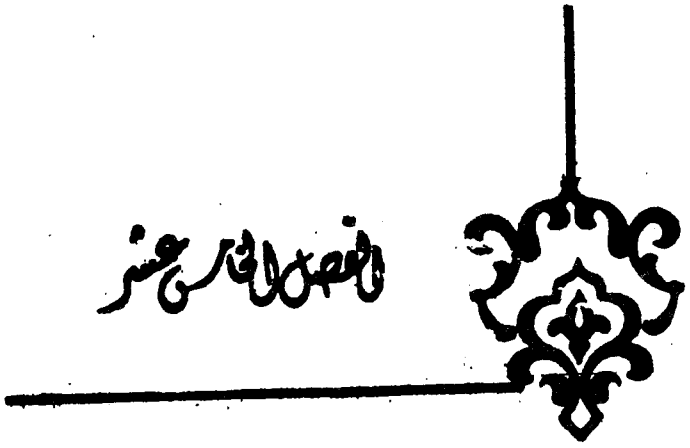

الفصل الخامس عشر

حازم القرطاجني

انتهت الى حازم القرطاجني (ت ٦٨٤ هـ) خلاصة الافكار الارسطية بخاصة واليونانية بعامة التي وجدت طريقها بشكل او آخر الى الفكر البلاغي والنقدي عند العرب . وكتاب (المنهاج) هو ثمرة التلاقح بين ثقافتين .. عربية ويونانية . وليس نسخا او ترجمة او شرحاً او تعليقاً على افكار ارسطو او غيره . كما هو الحال عند بعض اعمال الفلاسفة العرب السابقين عليه . ولهذا يصح القول ان عمل حازم كان محاولة لتطبيق بعض افكار ارسطو على الشعر العربي . وهو تطبيق فيه الكثير من الخروج على ارسطو والركون الى الافكار العربية في البلاغة والشعر والنقد .

وتبقى مسألة مدى نجاح او فشل حازم في تطبيق الافكار الاساسية لارسطو على الشعر العربي قابلة للاخذ والرد بين موقفين متباينين . موقف يتهمه بأساءة التطبيق ، واخر يعده مبدعاً . ان اتخاذ اي من هذين الموقفين هو الذي يحدد قيمة مركز حازم القرطاجني في تاريخ النقد العربي .

وقد اتيح لحازم ـ بحكم الفترة الزمنية المتأخرة التي عاش فيها ـ الاطلاع على انجازات الفلاسفة والنقاد الذين سبقوه الامر الذي مكنه من ان يختط لنفسه منهجاً غير منهج قدامة . ولكن تابع قدامة في محاولة تأصيل مفهوم للشعر غير مفارق لفكرة علم الشعر التي سعى اليها قدامة في القرن الرابع(١) .

(١) منهاج البلغاء / ٨٩ .

فن الشعر لارسطو :

ولا بد ـ قبل الحديث عن حازم وكتابه منهاج البلغاء وسراج الادباء ـ من الاشارة الى كتاب (فن الشعر) لارسطو في العربية فنقول ان هذا الكتاب نقله الى العربية من السريانية ابو بشر متي بن يونس (ت ٣٢٨ هـ) ويحيى بن عدي (ت) غير ان ترجمة هذا الاخير مفقودة . وقد عرض الفارابي (ت ٣٣٩ هـ) لفن الشعر في رسالة صغيرة بعنوان (رسالة في قوانين صناعة الشعر) وقدم الفارابي في هذه الرسالة افكاراً او آراء ليست موجودة في (فن الشعر) الذي نعرفه لارسطو ومن المحتمل ان يكون قد استقاها من شروح لاحقة على (فن الشعر) ومن مصادر اخرى على الرغم من ان الفارابي يشير الى ارسطو في رسالته فيقول انه يقصد (اثبات اقاويل وذكر معان .. على ما اثبته الحكيم في صناعة الشعر)(٢) ويريد بالحكيم بالطبع ارسطو . ويقول د . بدوي ان الفارابي في تلخيصه هذا لم يتناول كتاب ارسطو الا لماما(٣) في حين ان ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ) لخص (فن الشعر) في كتابه (الشفاء) وهو اول تلخيص كامل له(٤) . ولكن يشير بين الحين والاخر الى ماعند العرب مثل اشارته الى ضرورة القافية في الشعر العربي(٥) . او الاستشهاد بالشعر او غير ذلك(٦) .

ثم جاء ابن رشد (ت ٥٩٥ هـ) فكان تلخيصه اوسع من تلخيص سابقيه . وفيه موازنات وتطبيقات على مافي الشعر العربي . وفيه يترجم المأساة بشعر المديح والملهاة بشعر الهجاء وقد يكون متأثراً بترجمة أبي بشر متى بن يونس .

ومن الواضح لاي قارىء لهذه النصوص العربية لفن الشعر سواء أكان النص ترجمة ام شرحاً ام تلخيصا . ان المترجم او الشارح لم يحسن الترجمة او الشرح او الفهم وليس بعيداً عن الصواب ما اشار اليه د . طه حسين في بحثه (تمهيد في البيان العربي من الجاحظ الى عبد القاهر)(٧) . من ان (فن الشعر) لم يفهمه احد

---

(٢) ارسطو . فن الشعر (ترجمة من اليونانية وحقق نصوصه د . عبد الرحمن بدوي (القاهرة ١٩٥٣) ١٤٩ . وفي هذا الكتاب ايضاً النصوص الثلاثة للفلاسفة العرب الذين اشرنا اليهم في متن الفصل .

(٣) فن الشعر ٥٣ (من المقدمة)

(٤) المصدر السابق

(٥) المصدر السابق ١٦١

(٦) المصدر السابق ١٦٥ و ١٦٧ و ١٨٦ و ١٩٢

(٧) انظر مقدمة كتاب (نقد النثر)

من العرب والسبب واضح . ان ارسطو يتحدث عن فنون ادبية ـ الدراما والملحمة ـ لم يعرفها العرب . وان الاسس التي وضعها ارسطو انما وضعها على انواع ادبية لم تكن معروفة عندهم . ولذلك وجد المترجم الاول صعوبة في فهم مصطلحات مثل (كوميدي) و (تراجيدي) و (دراما) .. الخ . فكان ان ترجم الكوميدي بشعر الهجاء والتراجيدي بشعر المدح . وبذلك فتح ابو بشر الباب واسعاً لسوء فهم نص ارسطو استمر حتى عصر ابن رشد وحازم القرطاجني وقد يكون للمترجم العربي العذر في هذا .. لان اصل الشعر اما مديح او هجاء . فالمديح للاشراف من الناس والهجاء للاشرار منهم . ومن المديح بزغت المأساة . ومن الهجاء ظهرت الكوميديا .

غير ان الامر عند ابي بشر لم يقتصر على ذينك المصطلحين . وانما على المصطلحات الخاصة بالمسرح نفسه . فترجم التمثيل (بالجهاد) وترجم (الممثل) بـ (المنافق) والمسرح بالخيمة .. الخ(٨) .

وقد يبدو ان المترجم الاول كان يدرك ان مايشير اليه ارسطو لاوجود له عند العرب كالمسرح والتمثيلية .. الخ فحاول ان يقرب هذه المفاهيم الى ذهن القارىء العربي وتصوره بايجاد بدائل ان لم تكن هي نفسها عند اليونان فعلى الاقل تكون قريبة منها او موضحة لها .. وهكذا فالممثل منافق ، لانه يظهر بصورة اخرى غير شخصيته الحقيقية . والتمثيل جهاد لان فيه تكلفاً وجهداً يبذله الشخص من اجل ان يؤدي الدور المطلوب .

وانطلاقاً من كون بطل التراجيدي ذا خصائص فاضلة . وبطل الكوميدي ذا خصائص غير فاضلة . تصور ابو بشر ان شعر المأساة مدح . وشعر الملهاة هجاء(٩) .

ان محاولة التقريب هذه تكشف ـ على نحو غير مباشر ـ حقيقة ادركها من جاء بعد ابي بشر من الفلاسفة الذين اشرنا اليهم . وهي ان الشعر اليوناني غير الشعر العربي وان القوانين التي عرضها ارسطو استنبطها من المسرح اليوناني . ومسرح سوفوكليس بخاصة وهذه القوانين الصق بالادب اليوناني في كثير من تفصيلاتها وكان حازم مدركاً تمام الادراك الفرق بين الشعر اليوناني والشعر العربي ، وان

---

(٨) ه . شكري عياد . كتاب ارسطو طاليس في الشعر (القاهرة ١٩٦٧) ص ١٨٠ وما بعدها

(٩) ه . ناصر حلاوي . المحاكاة بين ارسطو وحازم القرطاجني ـ مجلة كلية الاداب ـ جامعة البصرة . عدد ١١ . السنة التاسعة . ص ١٥

الحاجة ماسة ـ كما يقول ـ الى من يضع قوانين في علم الشعر (بحسب عادة هذا الزمان) على حد قول ابن سينا .. يقول حازم (فأن الحكيم ارسطوطاليس وان كان اعتنى بالشعر بحسب مذاهب اليونانية فيه ونبه على عظيم منفعته . وتكلم في قوانين عنه . فأن اشعار اليونانية انما كانت اغراضاً محدودة في اوزان مخصوصا ومدار جل اشعارهم على خرافات وكانت لهم ايضاً امثال في اشياء موجودة نحوا من امثال كليلة ودمنة . ونحوا مما ذكره النابغة في حديث الحية وصاحبها . وكانت لهم طريقة يذكرون فيها انتقال امور الزمان وتصاريفه غير هذه الطرق كتشبيه الاشياء بالاشياء فأن شعر اليونانيين ليس فيه شيء منه . وانما وقع في كلامهم التشبيه في الافعال لافي ذوات الافعال(١٠) . ثم يمضي الى القول (ولو وجد هذا الحكيم ارسطو في شعر اليونانيين مايوجد في شعر العرب من كثرة الحكم والامثال والاستدلالات واختلاف ضروب الابداع في فنون الكلام لفظاً ومعنى وتبحرهم في اصناف المعاني لزاد على ماوضع من القوانين الشعرية وقد ذكرت في هذا الكتاب من تفاصيل الصنعة ما ارجو انه من جملة ماشار اليه ابو علي ابن سينا(١١) .

وكان ابن سينا قد اشار في خاتمة (فن الشعر) من كتاب الشفاء الى مايلي (هذا هو تلخيص القدر الذي وجد في هذه البلاد من كتاب الشعر للمعلم الاول وقد بقي منه شطر صالح . ولا يبعد ان نجتهد نحن فنبتدع في علم الشعر المطلق وفي علم الشعر بحسب عادة هذا الزمان كلاما شديد التحصيل والتفصيل)(١٢) .

لقد وضع ارسطو قوانين صناعة الشعر عند اليونان واراد حازم ان يضع قوانين صناعة الشعر عند العرب . اما الفارابي وابن سينا وابن رشد فقد عالجوا في تلخيصاتهم فكرة المحاكاة التي هي جوهر النظرية الارسطية في الشعر . وحاولوا ان يطبقوا هذه الفكرة على الشعر العربي . ويمكن القول انهم مهدوا الطريق لحازم في مسعاه .

لقد وجد حازم وهو ينظر في (فن الشعر) انه ازاء قانون عام (المحاكاة) يمكن تطبيقه على الشعر بصفته فنا . الا انه يفتقر الى التفصيلات التي ينبغي ان تستنبط

---

(١٠) المنهاج ٦٨ ـ ٦٩

(١١) المصدر السابق ٦٩ ـ ٧٠

(١٢) فن الشعر ١٦٨

من الشعر العربي نفسه . كما استنبط ارسطو تفاصيل نظريته من المسرح اليوناني وهذه التفصيلات هي مايمكن تسميته بـ (القوانين الخاصة) . ولم يكن هذا في الواقع خافياً على ابن سينا . فأن اشارته الى (علم الشعر المطلق) و (علم الشعر بحسب عادة هذا الزمان) مما يلفت النظر . ان هذا يعني ان ابن سينا ادرك ان هناك (قوانين عامة) و (قوانين خاصة) ولعله ادرك ايضاً ان ارسطو في قوانينه الخاصة انما يستند الى الشعر اليوناني وهو مختلف عن الشعر العربي . ومن هنا برزت الحاجة الى من يجتهد ويبدع في علم الشعر بحسب عادة هذا الزمان (اي الشعر العربي) .

وتبدو ملاحظة ابن سينا في ان الشعر اليوناني انما يحاكي الافعال . وان الشعر العربي يحاكي الذوات المهمة . فهو ـ في تصورنا ـ يعلق على نصوص لارسطو يرد في (فن الشعر) وهو (ولما كان المحاكون انما يحاكون افعالاً اصحابها هم بالضرورة اما اخياراً او اشرار) ... وقوله (اما الملحمة فتتفق مع المأساة الى الحد الذي يجعلها تمثيلاً لفعل جدي) وقوله عن التراجيدي انها (محاكاة فعل نبيل تام) والمقصود بمحاكاة الافعال عند اليونان ان الشاعر يحاكي الاحداث التي يمر بها الفرد وتترك عليه وعلى سلوكه آثاراً . ان الافعال او الاحداث التي اشار اليها ابن سينا هي التعبير عن عناصر الوجدان والفكر في الشخصية الانسانية من خلال الفعل ولا قيمة للاحداث الخارجية التي يقوم بها الفرد الا بمقدار دلالتها على تكوينه النفسي والعقلي . اما وصف الذوات ـ ميزة الشعر العربي فالمقصود بها وصف العناصر الشاخصة ساكنة كانت ام متحركة كالطبيعة والانسان والحيوان . وعند ارسطو ان اي مشهد خارجي كالطبيعة مثلاً ليس موضوع محاكاة جمالية وليس له اي قيمة فنية الا بمقدار مايكون خلفيته للحدث الذي هو موضوع المحاكاة . وما ينتج عن محاكاة الفعل دراماً . وما ينتج عن محاكاة الذات شعر وصفي غنائي .

ومن جهة اخرى يشير حازم ـ وقبله ابن سينا ـ الى ان الشعر اليوناني يعتمد على الاساطير . وموضوعاته لاتقع في الوجود . وان كانت مقصورة في الذهن . وقد ادخلها حازم في باب (الاختلاق الامتناعي)(١٣) اما الشعر العربي فموضوعاته (الحبيب والمنزل والطيف)(١٤) .

---

(١٣) المنهاج ٧٧ ـ ٧٨

(١٤) المصدر السابق ٧٧

الكتاب والدافع لتأليفه :

كان الدافع لتأليف كتاب (منهاج البلغاء وسراج الادباء) في رأي حازم هو اختلال طباع الناس ، خاصة في زمانه . الامر الذي اوجب تعلم تلك الصناعة . فاذا كان ، القدماء ـ على ماهم عليه من المقدرة والجود ـ بحاجة الى التعلم الطويل فما بالك بأهل هذا الزمان ؟(١٥) . ويقول ان النظم صناعة آلتها الطبع(١٦) .

ولقد هان الشعر على الناس هذا الهوان لعجمة ألسنتهم واختلال طباعهم . فغابت عنهم اسرار الكلام وبدائعه المحركة(١٧) ثم ان النفوس اعتقدت ان الشعر كله زور وكذب وقد حملهم على هذا الاعتقاد قصور طباعهم . كما حملهم على الغض من الشعر وأهله باخراجه من الحقائق جملة(١٨) .

وقد عمل حازم على توضيح صناعة الشعر على نحو مفصل ودقيق . وعلى وفق منهجية لاتقل شأن عن منهجية قدامة . وقسم حازم كتابه على اربعة اقسام . فقد ـ لسوء الحظ ـ القسم الاول منه . وفي كلامه عنه اشارات الى موضوعاته(١٩) . كما ان السبكي في كتابه (عروس الافراح) والزركشي في كتابه (البرهان) ينقلان نصوصاً منه تتناول البحث في القول واجزائه والاداء وطرقة(٢٠) .

اما القسم الثاني فيعالج (المعاني) ويعالج القسم الثالث (المباني) والقسم الرابع (الاسلوب) ولا نرى كبير جدوى في تقديم خلاصة لهذه الاقسام لما فيها من تفصيل يصعب معه الايجاز . علماً اننا سنعرض في هذا الفصل صورة شبه كاملة عن تصور حازم للشعر ماهيته واداته ووظيفته .

لقد استندت منهجية حازم في الكتاب الى تقسيمه كما اشرنا على اقسام ثلاثة كبيرة وجعل لكل قسم اربعة ابواب سمى كل باب منها بـ (منهج) وجعل المنهج

---

(١٥) المنهاج ٣٦ ، ٣٧
(١٦) المصدر السابق ١٨٩
(١٧) المصدر السابق ١٣٤
(١٨) المصدر السابق ١٣٥ ـ ١٣٦
(١٩) المصدر السابق ٣٦٤
(٢٠) المصدر السابق ، المقدمة ٩٤

فصولاً سماها على التوالي (معلم) و (معرف) ومأم)(٢١) وجعل كل معلم ومعرف فقرات اقصر اطلق عليها اسم (اضاءة) يقفوها بـ (تنوير)(٢٢) .

ويقول د . احسان عباس موضحاً هذه المصطلحات (انها اصطلاحات تعيد الى الذهن محاولة صاحب الريحان والريعان . فالمنهج (او المنهاج) هو الطريق الواسعة ولذلك كان كل فصل بهذا العنوان (في الابانة عن ماهيته) وعلى طول هذا الطريق معلم . اي اشارة تدل على طريق العلم . ومعرف . اي اشارة تدل على معرفة . والفرق بين الاثنين ان العلم يوميء الى القواعد التي تستند الى شؤون الذهن والقواعد المتصلة بالتفريعات المنطقية . وان المعرف يدل في الغالب على التقديرات النفسية . أما المأم فانه يدل على مذهب يفضي الى غاية ومقصد .. الخ)(٢٣) .

بين قدامة بن جعفر وحازم :

يسد كتاب المنهاج القصور الذي وقع فيه قدامة في (نقد الشعر) اذ ظن ان نقد الشعر ينصب على الشعر بصفته كلاماً موزوناً فقط فحازم يرى ان الشعر نتاج قوي مخيلة في نفس الشاعر من جهة . وهو ـ اي الشعر ـ ذو قوة فاعلة في نفس متلقيه واذن فهناك ثلاثة اركان في العملية كلها لابد من بحثها . الشاعر (الصانع) . والشعر (المادة المصنوعة) والجمهور (وظيفة الشعر) .

وقد يكون لقدامة العذر في انه قصر حديثه على الركن الثاني لانه كان يريد ان يضع اساساً لنقد الشعر . ولذلك كان عليه ان يعرف اولاً الشعر من اجل ان تتعلم كيف نقومه امام حازم فقد اراد ان يصلح الطباع التي داخلها الفساد والضعف والطبع الذي فسد هنا هو طبع الشاعر الذي لايعرف معنى الشعر . ولا كيف ينشأ ولا كيف يؤثر في الجمهور ولذلك بحث في نشأة الشعر والجمهور .

---

(٢١) لم يستخدم المصطلح الاخير الا في المنهج الثاني من القسم الثاني ص ٤٨ وما بعد والمنهج الثالث من القسم الثالث ص ٢٩٥ وما بعد . والمنهج الثالث من القسم الرابع ص ٣٥٩ وما بعد فقط . اما باقي مناهج الكتاب فلم يرد فيها هذا المصطلح .

(٢٢)وقد تعني (الاضاءة) بلا تنوير . انظر مثلا ص (٥١ ، ٥٥ ، ٢٥٨) الخ .

(٢٣) تاريخ النقد العربي ٥٧٣ ـ ٥٧٦

وقد نستطيع ان نفسر الفرق بين هذين الناقدين في ضوء مفهوم الشعر عند كل منهما . اما قدامة فقد عرفه ـ كما مر بنا ـ بأنه الكلام الموزون المقفى الذي يدل على معنى . وبذلك اقتصر حديثه ـ او قل ان شئت تعريفه ـ على الشعر . دون ان يتعداه الى ماقبل الشعر وما بعد الشعر .. اي الى منشأ الشعر (عند الشاعر) والى وظيفة الشعر (الجمهور) .

اما حازم فقد كان واضحا انه يرى في مفهوم قدامة للشعر بصفته كلاما موزونا فقط(٢٤) قصوراً ولذلك جاء تعريف حازم متمماً لتعريف قدامة يقول (الشعر كلام موزون مقفى من شأنه ان يحبب الى النفس ماقصد تحبيبه اليها . ويكره اليها ماقصد تكريهه لتحمل بذلك على طلبه او الهرب منه . بما يتضمن من حسن تخييل ومحاكاة مستقلة بنفسها او متصورة بحسن هيأة تأليف الكلام.. الخ(٢٥)

ففي هذا الكلام الاركان الثلاثة التي اشرنا اليها . فكون الشعر كلاماً موزوناً ينصرف الى الشعر نفسه . وكونه يحبب الى النفس .. الخ ينصرف الى مهمة الشعر وكونه كلاماً مخيلاً ينصرف الى الشاعر وكلها تدخل فيما اسماه حازم (معاني الشعر) التي ترجع الى وصف :

١ . احوال الامور المحركة الى القول (دوافع الشعر) .
٢ . احوال المتحركين لها (الجمهور) .
٣ . احوال المحركات والمحركين لها (الدوافع والجمهور)(٢٦)

وحازم شديد الاحتفاء بهذا حتى انه يعد حسن موقع المعاني في نفس الجمهور (اي اثره) شرطاً من شروط البلاغة والفصاحة وهذه المعاني التي يتكون منها الكلام وتكون حائزة على هذا الشرط هي مايسميها (المعاني الجمهورية) او المعاني الاول(٢٧) ولذلك فان المعاني العلمية والصناعية (المتعلقة بصنائع اهل المهن) لايحسن ان ترد في الشعر على هذا اتفق البصراء بهذه الصناعة كأبي الفرج قدامة واضرابه(٢٨) وسبب ذلك هو انها لاتستطيع ان تؤثر في النفوس فتدفعه الى رفض او قبول .

---

(٢٤) المنهاج ٣٦ ، ٣٧
(٢٥) السابق ٧١ وانظر ايضا ص ١٩ ـ ٢٠
(٢٦) السابق ٧٣
(٢٧) السابق ، ٢٨ ، ١٩٠ ـ ١٩١ .
(٢٨) السابق ٢٥ ـ ٢٨

وتأثير الشعر في النفوس نافع في رأي حازم لكونه (تخييلا) وكان القصد في التخييل والاقناع حمل النفوس على فعل شيء او اعتقاده او التخلي عن فعله واعتقاده . وكانت النفس انما تتحرك لفعل شيء او طلبه او اعتقاده او التخلي عن واحد من الفعل والطلب والاعتقاد بان يخيل لها او يوقع في غالب ظنها انه خير او شر بطريق من الطرق التي يقال بها في الاشياء انها خيرات او شرور(٢٩) وحسن التخيل شرط من شروط تحقيق التأثير(٣٠) فالشاعر عن طريق التخييل (يوحي لقارئه بوقفة سلوكية لا بالقول المباشر بل برسم صورة يكون بينها وبين السلوك المرتجي علاقة الاشارة الموجهة)(٣١) . وهذه الصورة تستدعي الذهن شبها لها . وتكون حافزا للقارىء على اصطناع موقف او وجهة نظر . او كما يقول حازم طلب للشيء او نفور منه . ان قوة التخييل ـ كما يرى الفلاسفة المسلمون الذين شرحوا ارسطو وعلقوا عليه هي تلك التي تستعيد صور الاشياء مع غياب حاملها عن حواسنا(٣٢) وهي قوة دافعة جاذبة نحو ما هو نافع . او دافعة عما هو ضار او غير ملائم(٣٣) . وهذه القوة تقع وسطا بين الحس والعقل . ولذلك اذا كانت الاقاويل الشعرية يقصد منها التخييل فان ما سواها من الاقاويل يقصد منها (اثبات شيء او ابطاله او التعريف بماهيته وتحقيقه)(٣٤) .

الشاعر

ولا يتأتى للشاعر ـ بالطبع ـ القدرة على التخييل الا بأسباب وهي ثلاثة ،

١ . مهيئات ، النشيء في بقعة معتدلة الهواء والترعرع بين الفصحاء

٢ . الادوات ، وهي كل ماله صلة بالعلوم المتعلقة بالالفاظ والمعاني .

٣ . البواعث ، وهي الحوافز والدوافع النفسية(٣٥) .

---

(٢٩) السابق ٢٠

(٣٠) السابق ٧١

(٣١) د . زكي نجيب محمود ـ مع الشعراء (بيروت ١٩٨٠) ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .

(٣٢) د . أفنت الكمال الروبي . نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين بيروت ١٩٨٣ . ٣٠

(٣٣) المصدر السابق ٥٩

(٣٤) المنهاج ٣٩

(٣٥) السابق ٤٠ وما بعدها

وحازم في كل هذا يستقي من التراث النقدي العربي فأن البيئة والتربية والنشأة والمعرفة اللغوية والنوازع النفسية كلها وردت عند الجاحظ وابن قتيبة والجرجاني وغيرهم .

والنظم يحتاج الى قوة فكرية واهتداءات خاطرية كالقدرة على التشبيه وتصور كليات الشعر ومقاصده . وتصور القصيدة وبنائها والاهتداء الى العبارات الحسنة الدالة عن المقصود وربط فصول القصيدة والابيات والقدرة على التمييز بين القبيح والحسن في الكلام(٣٦) وهذه كلها امور تمس القصيدة بوصفها بناء متكاملاً مكوناً من الفاظ ومعان وخيال . والشعراء يتفاوتون في هذا وهم ثلاث طبقات(٣٧) .

ماهية الشعر :

مربنا تعريف حازم الشعر ورأينا ان اهم مايميز هذا التعريف هو (التخييل) الذي هو جوهر الشعر ، ولا يعد الشعر شعرا من حيث هو صدق او كذب ، بل من حيث هو كلام مخيل(٣٨) وبذلك ابعد حازم عن الشعر قضية طالما شغلت النقاد العرب من الذين لم يتأثروا بالفكر الارسطي ، وهي قضية الصدق والكذب .

ويضع حازم الشعر مقابلاً للخطابة ـ كما يفعل ارسطو ـ من حيث ان مهمة الاول التأثير ومهمة الثانية الاقناع ، على الرغم من ان حازماً لايجرد الشعر من مهمة الاقناع تماماً كما لايجرد الخطابة من مهمة التأثير تماماً لذلك (لاينبغي ان ينحى بالمعاني ابدا منحى واحداً من التخييل او الاقناع . ولكن تردف التخييلية في الطريقة الشعرية بالاقناعية والاقناعية في الخطابة بالشعرية)(٣٩) لان النفوس ترتاح الى الافتنان في مذاهب الكلام وترتاح للنقلة من بعض ذلك الى بعض .. لذلك كانت المراوحة بين المعاني الشعرية والمعاني الخطابية اعود براحة النفس ، وابعون على تحصيل الغرض المقصود)(٤٠)..

وكان ابو الطيب المتنبي يعتمد هذا كثيراً ويحسن وضع البيت الاقناعي من الابيات المخيلة لانه كان يصدر الفصول بالابيات المخيلة ثم يختمها ببيت اقناعي يعضد ماقدم من التخييل(٤١) .

---

(٣٦) السابق ٢٠٠ ـ ٢٠١

(٣٧) السابق ٢٠١

(٣٨) السابق ٣٣ (٣٩) السابق ٣٥٨ . وانظر ايضاً ٣٣٣ ـ ٣٣١

(٤٠) السابق ٣٥٩

(٤١) السابق ٣٣٣

والقياس في كل هذا ان الاقاويل خطابية بما فيها من اقناع شعرية بما فيها محاكاة وخيالات(٤٢) .

التخييل :

والتخييل عند حازم (ان تتمثل للسامع لفظ الشاعر المخيل او معانيه او اسلوبه او نظامه وتقوم في خياله صورة ينفعل لتجنبها وتصورها(٤٣) ولان التخييل تابع للحس فهو يؤثر في النفس .

واسباب تأثير التخييل في النفس مرتبط بالتعجب منه . اما لجودة هيأته او قوة صدقه او قوة شهرته او حسن محاكاته(٤٤) .

ويقع التخييل في الشعر من اربعة انحاء .. من جهة المعنى ، ومن جهة الاسلوب ومن جهة اللفظ ومن جهة النظم والوزن(٤٥) .

ويبدو من حديث حازم ان تخييل المعنى من جهة اللفظ ، اي التعبير عن المعنى في قالب لفظي ، ضروري اذ لاتخييل بدون ذلك . اما التخييل من الجهات الثلاثة الاخرى فمستحبة وليست ضرورية لانها مكملة للتخييل الاول وهي عون له على مايراد من انها من النفس الى طلب الشيء او الهرب منه(٤٦) .

المحاكاة :

في الشعر كما في سائر الفنون ، تخييل يقصد به استعارة الصور الحسية المخزونة في الذاكرة او المعاني . وهو نشاط ابداعي يقوم به الشاعر والفنان . وهذا التخييل يتجسد في فعل المحاكاة التي هي الصورة المجسدة ـ في الشعر صورة لفظية ـ لتلك الصور والمعاني المختزنة في الذاكرة . لذلك فقوام عمل المخيلة الانسانية هو المحاكاة . وهذا ماكان يراه الفلاسفة المسلمون(٤٧) وهذا مايراه حازم ايضاً .

---

(٤٢) السابق ٦٧
(٤٣) السابق ٨٩
(٤٤) السابق ٨٤
(٤٥) السابق ٨٩
(٤٦) السابق
(٤٧) د . الفت الروبي ، نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين ، ٦٣ ـ ٦٤

واذا كنا المحنا سابقاً الى التخييل فانما تشير بذلك الى تأثير فعل المحاكاة في الجمهور ، او بكلمة اخرى تشير الى وظيفة الشعر والفنون بوجه عام . والمحاكاة-تقع وسطاً بين التخيل . نشاط الشاعر الابداعي ، والتخييل اثر المحاكاة في النفس . وعلى النحو الاتي ، ـ

تخيل (عند الشاعر) ـ ومحاكاة (في الشعر) ـ تخييل (الاثر النفسي) فالمحاكاة على هذا واسطة لفعل التخييل كما يرى ابن سينا(٤٨) وتقع المحاكاة في صلب نظرية الشعر الارسطية . وهي كذلك عند الفلاسفة المسلمين . وعند حازم من بعدهم وعند السجلماسي من بعد حازم(٤٩) .

غير ان حازم يرى اكثر من سبيل للتخييل . وليست المحاكاة الا واحدة منها فأن مجرد تصور الشيء في الذهن مثلاً تخييل . كما ان مشاهدة شيء مايذكرك بشيء اخر هو تخييل . لكن هذا لايخلق فناً ولا يصنع شعراً . والمحاكاة الحقة هي ان تحاكي الشيء الذي تتخيله باللفظ والوزن وهذه هي المحاكاة الشعرية . او ان تحاكيه بالاصوات والانغام كما في الموسيقى .. او تحاكيه باللون كما في الرسم او تحاكيه بالحركات كما في التمثيل والرقص(٥٠) .

ومع ان ارسطو لم يشرح بالتفصيل مفهوم المحاكاة في (فن الشعر) فأن الدارسين حاولوا ان يحددوا هذا المفهوم في ضوء الاستعمالات المختلفة للمصطلح عنده . وخلاصة مايرونه ان المحاكاة عند ارسطو ليست تقليداً او نسخاً للشيء ، وانما هي تصوير وتمثيل(٥١) ، يسمح للعنصر الخلاق عند الفنان والشاعر ان يقوم بدور مافيه . كأن يصور الشيء احسن مما هو او اسوأ مما هو او كما هو . وقد تبنى حازم الموقف نفسه .. او قل الفهم نفسه للمصطلح ولذلك فهو يقسم المحاكاة الى محاكاة تحسين ومحاكاة تقبيح ومحاكاة مطابقة (لايقصد بها الا ضرب من رياضة الخواطر والملح . وربما كان القصد من ذلك ضرباً من التعجب والاعتبار(٥٢) .

---

(٤٨) كتاب المجموع او الحكم العروضية في كتاب معاني الشعر (تحقيق د . محمد سليم سالم) (القاهرة ١٩٦٩) ١٦

(٤٩) ينظر كتاب المنزع البديع في تجنيس اساليب البديع . تحقيق علال الغازي الرباط . ١٩٨٠ .

(٥٠) المنهاج ٨٩ ـ ٩٠

(٥١) نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين ٧٦ ـ ٧٧

(٥٢) المنهاج ٩٢

كما ان حازماً تبنى رأي ارسطو في ان المحاكاة غريزة في الانسان وهي اقوى في الانسان منها في الحيوان ، وهي مصدر من مصادر الالتذاذ كما يقول حازم نقلاً عن ابن سينا في كتاب (الخطابة) و (كتاب الشفاء)(٥٣) . يقول حازم (لما كانت النفوس قد جبلت على التنبه لانحاء المحاكاة واستعمالها والالتذاذ بها منذ الصبا وكانت هذه الجبلة في الانسان اقوى منها في سائر الحيوان .. اشتد ولوع النفس بالتخيل وصارت شديدة الانفعال له)(٥٤) .

وينقل عن ابن سينا قوله (ان النفوس تنشط وتلتذ بالمحاكاة ، والدليل على فرحهم بالمحاكاة انهم يسرون بتأمل الصور المنقوشة للحيوانات الكريهة المقززة منها ولو شاهدوها انفسهم لتنطوا عنها . فيكون المفرح ليس نفس تلك الصورة ولا المنقوش بل كونها محاكاة لغيرها اذا كانت قد اتقنت)(٥٥) وبهذا يشير ابن سينا ومثله حازم الى مسألة غاية في الاهمية في علم الجمال ، وهي مسألة القبح في الفن . هل يجوز محاكاة القبيح في الفن ؟ واين الجمال والمتعة في ذلك ايكون الموقف من هذا الالتذاذ ام التقزز ؟ واذا كان الاول ، فلم ؟ ولماذا يتقزز الانسان من الاشياء المنفرة والمناظر المؤلمة في الواقع ، ولا ينفر منها في الفن ؟

وقد نسب حازم ـ نقلاً عن ابن سينا ـ تولد (وجود) الشعرية في الانسان الى غريزة المحاكاة اولاً .. وحب الناس للتأليف المتفق والالحان ثانياً(٥٦) وفسر حازم عبارة (التأليف المتفق) بأنه المحاسن التأليفية والصيغ المستحسنة البلاغية(٥٧) والنفس الانسانية تلتذ للعبارات الحسنة وتكره المستقبحة . ولذلك فالاقاويل الشعرية يحسن موقعها كلما كان اختيار اللفظ وتركيبه مناسباً(٥٨) .

يسرف حازم في تقسيماته للمحاكاة تبعاً لوجود واسطة التخيل او عدم وجودها او تبعاً لشيوعها او عدم شيوعها او تبعاً لتنوعها وهو في هذا كله لا يجاري احداً ولا يلتقي مع ارسطو الا في تقسيمه للمحاكاة الى محاكاة تقبيح وتحسين ومطابقة .

---

(٥٣) السابق ١١٧
(٥٤) السابق ١١٦
(٥٥) السابق ١١٧
(٥٦) السابق
(٥٧) السابق ١١٨
(٥٨) المصدر السابق

وحازم ينطلق في فهمه للمحاكاة من تصور عربي فالمحاكاة عنده تشبيه اولاً ويدخل في هذا الاستعارة والوصف. ولذلك نراه يقسم المحاكاة من جهة الواسطة الى محاكاة الشيء ويسميها (المحاكاة المتحدة) ويريد بهذا الوصف ومحاكاة الشيء بغيره ويسميها (المحاكاة المزدوجة) لانها تتكون من المثال والممثل(٥٩). ويريد بذلك التشبيه ولا تخرج المحاكاة في رأي حازم عن حدود هذين النوعين (فلابد في كل محاكاة من ان تكون جارية على احد هذين الطرفين(٦٠) وكلامه هذا صدى لرأي الفارابي في الموضوع(٦١).

ويرى د. شكري عياد ان حديث حازم عن المحاكاة التشبيهيه اقرب الى (الخطابة) لارسطو منها الى (فن الشعر)(٦٢). اما محاكاة الوصف فهي الصق بالمحاكاة الارسطية وهي بالضبط محاكاة الذوات كما تحدث عنها ابن سينا(٦٣).

والمحاكاة الوصفية على اية حال لابد ان تتخيل الشيء بخواصه واعراضه فاذا اريد وصف الشيء على نحو كامل وجب ذكر خواصه القريبة اللازمة له في جميع الاحوال او اللاحقة له في حال ما. يمثل ذلك الهيئة واللون والمقدار واللمس. وان اريد وصف الشيء في بعض احواله كان الافضل القصد الى بعض خواصه القريبة والشهيرة(٦٤). والشاعر ملزم في الحالين اي الوصف على وجه التفصيل او الوصف على وجه الاجمال ان يأخذ اوصاف الشيء المتناهية في الحسن، اذا اراد التحسين، او المتناهية في القبح اذا اراد التقبيح ولهذا شروط.

١. ان يبدأ بوصف الخطوط العريضة ومن بعدها التفاصيل.
٢. ان يلتزم النسق الصحيح في الترتيب لان النفس الانسانية تعاف فساد الترتيب كما في وضع النحر، في صورة الحيوان. بشكل غير غير تال للعنق. وكذلك سائر الاعضاء(٦٥).

---

(٥٩) السابق ٩٥، ١٣
(٦٠) السابق ٩٤
(٦١) مجلة الشعر عدد ١٣ لسنة ١٩٥٩، ص ٩٣
(٦٢) فن الشعر ٣٦٤
(٦٣) السابق
(٦٤) المنهاج ٩٩ ـ ١٠٠
(٦٥) السابق ١٠١

اما المحاكاة التشبيهية فحديث حازم عنها اكثر تفصيلاً . سبب ذلك ان محاكاة التشبيه (أطرفُ واكثر جدة)(٩٦) . ولانها تعتمد على الموازنة وحسن اقتران الشيء الحقيقي بالشيء المجازي(٩٧) . والمحاكاة التي تتم فيها الموازنة بين اثنين هي محاكاة بالوساطة بخلاف محاكاة الوصف فهي بلا وساطة(٩٨) .

ولمحاكاة التشبيه احكام . اذ ينبغي ان تكون بأمر موجود لامفروض وان تكون في الامور المحسوسة ... وبها يحسن ان نحاكي الامور غير المحسوسة وعلى ذلك فمحاكاة المحموس بغير المحسوس قبيحة(٩٩) . لان القصد من المحاكاة لان القصد من المحاكاة هو الايضاح ولتحقيق هذا ينبغي ان تكون الاوصاف التي يشترك فيها (المثال) و (الممثل) من اشهر صفاتها وينبغي فضلاً عن ذلك ان تكون الصفة في الممثل به اكد واقوى(١٠٠) . وهذا يعني ان العلاقة بين طرفي المحاكاة قائمة على اساس الاشتراك في صفة او اكثر .

ان الصفة المشتركة قد لاتكون واحدة في كل انواع المحاكيات . فهناك صفات مشتركة في الهيئة او في اللون او في المقدار . فاذا كانت المحاكاة محاكاة هيئة لايلتفت الى الاختلاف في اللون مثلاً بين طرفي المحاكاة . ان تشبيه الذباب بالقادح في بيت عنترة المشهور ،

طردا يحك ذراعه بذراعه
فعل المكب على الزناد الاجذم

محاكاة يقصد منها ابراز الهيئة . لا المقدار ولا اللون ولا اية صفة اخرى(١٠١) ومن الواضح ان حديث حازم في المحاكاة التشبيهية لايخرج في تفصيلاته وامثلته عن حديث البلاغين في التشبيه وانواعه وطبيعة العلاقة القائمة بين طرفي التشبيه والقاريء للفصل الذي كتبه حازم عن هذا النوع من المحاكاة لايستطيع الا ان يستذكر مايقوله البلاغيون جميعاً في التشبيه .

---

(٩٦) السابق ١٣٩
(٩٧) السابق ١٣٨
(٩٨) السابق ٩٥
(٩٩) السابق ١٣٣ - ١٣٤
(١٠٠) السابق ١٣٣
(١٠١) السابق ١٣٤

وقد تحول مفهوم المحاكاة عند حازم الى مفهوم بلاغي عربي . ولهذا لانجد في كلام حازم عن المحاكاة على نحو ما اشرنا اليه وما فصله هو في (المنهاج) اية صلة بينة وبين ارسطو (فن الشعر). وشأن حازم في هذا المصطلح ـ كما في غيره ـ هو انه يعطي للمفاهيم الارسطية والمصطلحات الارسطية نكهة عربية خالصة عبر محاولة تقريب هذا المفهوم او ذاك الى ما يماثله في العربية ، وعبر النماذج العربية التي يستشهد بها .

معاني الشعر

يعرف حازم المعاني بقوله انها (الصور الحاصلة في الاذهان عن الاشياء الموجودة في الاعيان)(٧٢) ، وتقوم الالفاظ بنقل هذه الصور الذهنية الى الافهام والشاعر على الرغم من ضرورة ان يكون قادرا على حسن التصرف بالمعاني وهو معني على نحو خاص بالمعاني التي تحدث عنها انفعالات وتأثرات(٧٣) وهي تلك الاشياء التي فطرت النفوس على التلذذ بها او التألم منها وهذه(٧٤) افضل المعاني الشعرية .

واذن فمعاني الشعر ترجع كما يقول (الى وصف احوال الامور المحركة الى القول أو الى وصف احوال المتحركين لها . او الى وصف المحركات والمحركين(٧٥) وهذه المعاني بطبيعتها حسية من أجل ان يحصل التأثر بها(٧٦) وهي المعاني الأول علماً ان هناك من المعاني ما يرد في النص الشعري ولا يراد به التحريك او الالتذاذ او التألم . وانما يؤتى بها للتدليل على المعاني الاول . ويسميها حازم المعاني الثواني وهي موضحة للاولى ولذلك يجب ان تكون اشهر من المعاني الاولى . او على الاقل مساوية لها(٧٧) .

كما ان على الشاعر ان يعرف (وجوه انتساب المعاني بعضها الى بعض مما يتولد عنه صور التشبيه بانواعها . اذا كان احد المعنيين مناسبا في الصفة للاخر . او

---

(٧٢) السابق ١٨

(٧٣) السابق ١١ ، ٢١

(٧٤) السابق ٢٠

(٧٥) السابق ١٣

(٧٦) السابق ٢٩ ، ٣١

(٧٧) السابق ، ٢٤

يتولد عنها المجاز (الاستعارة مثلا) اذا كان احد المعنيين مستعاراً للاخر . ومثل هذه المعاني التي يتم التناسب فيما بينها بالاقتران او بالتضاد او بالمقابلة او بالمطابقة هي معاني داخل الذهن .(٧٨) ويشير بذلك حازم الى المعاني التي لايوجد لها ما يطابقها في الواقع . فالشاعر عندما يشبه شيئا او يستعير اسم شيء لاخر انما ينقل بالالفاظ معاني حاصلة في الذهن . وهذه المعاني تحصل (بقوة التخيل)(*) والملاحظة لنسب بعض الاشياء من بعض فاذا كانت صور الاشياء قد ارتسمت في الخيال على حسب ماوقعت عليه في الوجود ، وكانت للنفس قوة على معرفة ما تماثل منها وما تناسب وما تخالف وما تضاد .. امكن ان تركب من انتساب بعضها الى بعض تركيبات .. وان تنشيء على ذلك صورا شتى من ضروب المعاني في ضروب الاغراض .(٧٩) ومثل هذه المعاني تحتاج الى قوة تخيل لانها تقوم على المقارنات والموازنات بين المعاني التي تبدو ظاهريا غير مترابطة ، ولا يربطها الاخيال الشاعر .

والى جوار المعاني التي هي في داخل الذهن ، وهي المعاني المجازية بوجه عام ، هناك المعاني الواقعة خارج الذهن وهي كما اشرنا سابقا (الاشياء الموجودة في الاعيان) . وتوصف كما هي ومعرفتها تقتضي العلم باوصافها وما يتعلق بها من اوصاف غيرها(٨٠) .

والمعاني واحدة ومع ذلك فهناك درجات فمنها المبتذل والشائع الذي نراه مرتسما في كل فكر ، مثل تشبيه الشجاع بالاسد او الكريم بالغمام ، ومجيء هذه المعاني في الشعر لايدل على سرقة . ومنها (مايكون ارتسامه في بعض الخواطر دون بعض) وهي المعاني التي تبنى على المعاني الاولى بزيادة حسنة او بنقله من غرض الى اخر او بتحسين العبارة . ومن غير ذلك يعد تناولها سرقة محضة .

وهناك قسم ثالث من المعاني وهو النادر وتسمى (المعاني العقم) وهي دليل الشاعرية (ومن بلغها فقد بلغ الغاية القصوى)(٨١) ونقل هذه المعاني من غير

---

(٧٨) السابق ١٤ ـ ١٥

* ويسميها حازم القوة الذاهرة

(٧٩) السابق ٣٨ ـ ٣٩

(٨٠) السابق ٣٨

(٨١) السابق ١٩٣ ـ ١٩٤

زيادة حسنة من اقبح السرقات فاذا ابرز متأخر هذه المعاني في عبارة اشرف من الاولى فله الفضل في التحسين .. وللمتقدم الفضل في الاختراع . ويعقب حازم على هذا بالقول انه على الرغم من ان الاثنين ، المتقدم والمتأخر يشتركان في فضل ندوة المعنى فالثاني يفضل الاول . اذ يؤثر في المعاني التقديم والتأخير . وان كان هناك فضل للمتقدم فهو فضل راجع للشاعر بصفته متقدما في الزمن على المتأخر وليس فضلاً راجعاً للشعر بصفته شعراً . وقد يبدو ان معيار قوة الشاعرية عند حازم لا يعود الى تقدم في الزمن او تأخر .. فهذا معيار خارج عن نطاق الشعر ويرتبط بالشاعر اما العيار الصحيح فهو الذي ينظر إلى الشعر بصرف النظر عن تقدم الشاعر او تأخره .. وهذا الرأي صدى لرأي ابن قتيبة وعبد العزيز الجرجاني(٨٢) .

وقد سمى حازم هذا النوع الاول من المعاني (الشركة) والنوع الثاني (الاستحقاق) والنوع الثالث (الاختراع) وهناك نوع رابع وهو (السرقة) المحضة .(٨٣)

معيار المعاني

ومعيار المعاني عند حازم تأثر الجمهور بها وفهمه اياها مادام الغرض من الشعر التأثير في النفس واقتيادها الى طريق الخير وابعادها عن طريق الشر وهذه هي المعاني الجمهورية التي يشترك ففي فهمها الخاص والعام . لان من المعاني مايحتاج في فهمه الى مقدمة من معرفة صناعة او حفظ قصيدة . والمعاني الجمهورية لاتحتاج الى هذه المعرفة المسبقة .(٨٤)

وقد كان اهتمام حازم بالوجوه التي يكون فيها الكلام بينا واضحا كبيرا ولذلك سعى الى الكلام في الغموض واسبابه .. (فأن ورود المعنى غامضا في كلام قد قصد به الابانة مما يوعر سبيله . ويزيله عن الاعتدال والاستواء مع مناقضته للمقصد)(٨٥) وقد يقع الغموض في المعاني . كما قد يقع من الالفاظ والعبارات او في الاثنين .

---

(٨٢) السابق ١٩٥ ـ ١٩٦ .
(٨٣) السابق ١٩٦
(٨٤) السابق ١٧٨
(٨٥) السابق ١٧٥

اما غموض المعاني فهو ان يكون دقيقا في نفسه او ان يكون مبنيا على مقدمة في الكلام قد صرف الفهم عن التفاتها بعد حيزها من حيز ما بني عليها . او ان يكون المعنى علميا او خبرا تاريخيا او في المعنى اجالة الى ذلك .. فالذي يبنى على غامض لا بد ان يكون غامضا .(٨١)

ومن غموض المعاني مايقصد به الدلالة على جهة الارداف او الكناية(٨٢) وغموض الالفاظ سببه ان يكون اللفظ نفسه حديثا او غريبا او ان يكون في الكلام تقديم او تأخير او ايجاز او قصر او حذف(٨٣)

وابان حازم بعد هذا وقد فصل فيه كثيرا على نحو لايمكن ايجازه دون اخلال طريق ازالة الغموض والاشكال الواقعين في المعاني والالفاظ(٨٤) .

والغموض ليس امراً مرفوضا دائما فالكلام الذي يقصد منه الكناية او الايجاز لا يمكن تجاوز الغموض الذي يتلبسه .

ومثلما يعتور المعاني وضوح وغموض وخصوص وعموم ينالها شيء من الامكان والاستحالة والوجوب والامتناع والصدق والكذب ومعالجة حازم لهذه القضايا تكشف عن تأثر واضح بقدامة يصل الى درجة النقل الحرفي .

اغراض الشعر :

بحث حازم اغراض المدح والهجاء في باب المعاني بشكل موجز وفصل في ذلك في باب الاساليب والطرق .

وطرق الشعر عند حازم اثنان . طريق الجد وطريق الهزل . فاما طريق الجد فهو (مذهب في الكلام تصدر الاقاويل فيه عن مروءة وعقل) واما طريق الهزل فهو (مذهب في الكلام تصدر الاقاويل عنه عن مجون وسخف) وتختص الطريقة الجدية بتجنب الساقط من اللفظ والمولد . ويقتصر فيها على العربي المحض وعلى

---

(٨١) السابق ٣٣٣ ـ ٣٣٣
(٨٢) السابق ٣٣٣ ـ ٣٣٣
(٨٣) السابق
(٨٤) السابق ٣٣٧

التصاريف الصريحة في الفصاحة المطردة في الكلام . وان يتحرى في العبارة المتانة والرصانة . كما يتحرى عن طريقة الهزل الحلاوة والرشاقة . وقد يستخدم في الهزل العبارات الساقطة والالفاظ الخسيسة مثل كثير من الفاظ الشطار المتماجنين وأهل المهن والعوام . واشار ـ ايضا ـ في طريقة الهزل استعمال التصاريف التي شاعت على ألسن الناس وتكلم بها المحدثون وان لم تقع من كلام العرب الا على ضعف او قلة .(٩٠)

وليس بين هاتين الطريقتين حد فاصل لايمكن تجاوزه . فقد تأخذ طريقة الجد من الهزل الرشاقة في العبارة وبعض المعاني التي فيها اطراب وبسط للنفوس كما يمكن لطريقة الهزل ان تأخذ من طريقة الجد المتانة في التعبير والاحالة على بعض المعاني العلمية بقصد الهزل .(٩١)

وعندما يصنف حازم طرق الشعر الى اثنين انما ينطلق من نظرته الى ان الغرض من الاقاويل الشعرية استجلاب المنافع ودفع المضار فالاشياء اما خيرات او شرور ومعاني الشعر لاتخرج عن حدود المدح الذي يخص بالذكر الجميل انسانا جلب نفعا او الهجاء الذي هو عكس ذلك(٩٢)

ولم يخف حازم رفضه لتقسيم الشعر الى اغراض ستة ، مدح وهجاء ونسيب ورثاء ووصف وتشبيه (لكون كل تقسيم منها لايخلو ان يكون فيه نقص او تداخل)(٩٣) ولعله يرد بهذا على قدامة الذي نظر الى الشعر على هذا النحو .

غير انه يعود في موضع اخر فيرى ان (امهات الطرق الشعرية اربعة وهي التهاني وما معها ، والتعازي وما معها ، والمدائح وما معها ، والاهاجي وما معها ، وان كل ذلك راجع الى ما الباعث عليه الارتياح والى ما الباعث عليه الاكتراث . والى ما الباعث عليه الارتياح والاكتراث والاكتراث معا)(٩٤) اما الذين قسموه الى مدح ونسيب وهجاء ورثاء فأنما قسموه بحسب الاهم فالاهم(٩٥) .

وقد بنى حازم الغرض الشعري الرئيسي على المدح بالفضائل الاربع ومنها تتفرع فضائل اخرى (وكل واحد من هذه الفضائل وسط بين طرفين مذمومين)(٩٦)

---

(٩٠) السابق ٣٢٩ ، ٣٣١ ـ ٣٣٢
(٩١) السابق ٣٣٥ وما بعدها
(٩٢) السابق ٣٣٧
(٩٣) السابق ٣٣٦ ـ ٣٣٧
(٩٤) السابق ٣٤١
(٩٥) السابق ٣٤٩
(٩٦) السابق ١٦٥ ـ ١٦٧

وواضح ان حازما هنا يبدو متأثراً بقدامة على نحو مباشر وارسطو على نحو غير مباشر .. لانه يضيف قائلا ان قدامة لم يكن اول من فعل ذلك فقد (سبقه القدماء الى هذه الفسحة)(٩٧)

وفصل في معاني المدح من ذلك اشارته ـ كما قلنا ـ الى المدح بالفضائل النفسية دون الفضائل الجسمية .. والى اختلاف معاني مديح الناس باختلاف طبقاتهم الاجتماعية وهو في كل ذلك ينقل عن قدامة .. ولقد قلنا مافيه الكفاية من الحديث عن قدامة ولذلك لانجد مسوغا للاعادة هنا .

وقد يبدو لافتا للنظر الى ان حازما لم يتطرق الى معاني الهجاء على نحو ما فعل في معاني المديح . ولعل السبب في ذلك ان الهجاء ـ كما هو حاله عند قدامة ـ نقيض المدح . فاذا عرفت معاني المدح لم يصعب معرفة معاني الهجاء .

وأشار أخيراً حازم بشكل موجز جدا الى معاني الرثاء والغزل والتهاني والاعتذار والفخر .(٩٨)

القصيدة

يذكرنا حديث حازم عن عملية نظم القصيدة بما مر بنا عن ابن طباطبا ويخيل الينا ان حازما على معرفة بما كتبه ابن طباطبا في كتابه (عيار الشعر) .

وقد اخذ حازم ايضا بوصية ابي تمام للبحتري من هذا الشأن واورد نصا يؤكد ان لابد للشاعر ان يختار الوقت المناسب للنظم . وان يكون في حالة نفسية جيدة (فارح نفسك ولاتعمل الا وانت فارغ القلب ..واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة لحسن نظمه .(٩٩)

ومثلما فعل ابن طباطبا في تصوره لعملية النظم .. وضع حازم تصورا مماثلا لذلك فنظم القصيدة عملية واعية (لان النظم صناعة ، آلتها الطبع)(١٠٠)

وخطوات نظم الشعر هي :

---

(٩٧) السابق ١٦٥

(٩٨) السابق ٣٥١ وما بعدها .

(٩٩) السابق ٢٠٣ .

(١٠٠) السابق ١٩٩

١. ان يحضر الناظم مقصده في خياله وذهنه . ويتخيلها تبعا بالفكر في عبارات (نثرية) .

٢. ان يقسم المعاني والعبارات على الفصول (اجزاء القصيدة) ويبدأ بما يليق بمقصده . ثم يتبعه من الفصول (الاجزاء) بما يليق ان يتبعه به . ويستمر هكذا على الفصول فصلا فصلا .

٣. ان يشرع في نظم العبارات التي احضرها في خاطرة منتشرة فيصيرها موزونة .

٤. ان يستبدل كلمة بأخرى .. او يزيد في الكلام اذا كان في ذلك فائدة او يقدم ويؤخر . وقد اولى حازم هذه الخطوة (عملية التنقيح والتحسين اهتماما كبيرا وميز بين الشعراء على اساسها .(٣٦)

وهذه خطوات ان صحت نظريا . فلن تصح في اثناء التطبيق . فالشاعر لاينظم على وفق هذه الخطوات . ومع ذلك تبقى عملية النظم عند حازم مسألة أبعد ما تكون عن العفوية والارتجال . وأقرب ما تكون الى الصنعة والفعل الارادي الواعي

لقد شبه حازم فصول (اجزاء) القصيدة بالعبارات المؤلفة من الفاظ فكما ان للفظة اعتبارين .. واحد راجع الى المادة (الهيئات والاوضاع) واخر راجع الى المعنى الذي تدل عليه . كذلك اجزاء القصيدة . والاعتبار الاول يخص بناء القصيدة وتماسكها وهي مسألة اكدها حازم وافرد لها فصلا في (طرق العلم بأحكام مباني الفصول وتحسين هيئاتها ووصل بعضها ببعض) وحدد لهذا قوانين ثلاثة .

١. قانون التناسب بين الالفاظ والمعاني (المسموعات والمفهومات) وبين الفصول (الاجزاء) من حيث الطول او القصر . (وتقصير الفصول سائغ في المقطعات وتطويل الفصول سائغ في القصائد المطولة) .
ثم التناسب بين النظم والغرض (فتعمد الجزالة في الفخر .. والعذوبة في النسيب) .

٢. قانون التدرج .. فيجب ان يقوم من الفصول مايكون للنفس به غاية بحسب الغرض المقصود ويتلوه الاهم فالاهم .

---

(٣٦) السابق ٢٠٩ ، ٢١٥ .

٣ . قانون الترابط بين الابيات فتكون المعاني متناسبة فيما بينها وان يبدأ بالمعنى الاساس . ولابد من (ان يكون لمعنى البيت علاقة بما قبله ونسبة اليه) .

وليس معنى هذا ان الشعراء لايتجاوزون هذه القوانين . فبعضهم يؤخذ المعنى الاشرف ليكون خاتمة الفصل . وبعضهم ـ كالمتنبي ـ يبدأ القصيدة احيانا بالتخييل (المحاكاة) ويختمها بالاقناع . فيخلط بين قانوني الشعر والخطابة(١٠٢)

وقد وسع حازم من نطاق هذا المبدأ فأقر اشتمال القصيدة على غرضين نسيب ومدح مثلا . (وهذا اشد موافقة للنفوس الصحيحة الاذواق لما ذكرناه من ولع النفوس بالافتنان في انحاء الكلام وانواع القصائد)(١٠٣) . ويسمى حازم هذا النوع بـ (القصائد المركبة) وبعكسها (القصائد البسيطة) التي تكون مدحا خالصا او رثاء محضا .

وللقصائد مطالع وتخلص وخواتيم . ويجب ان تكون مطالع القصائد جزلة حسنة المسموع (اللفظ) والمفهوم (المعنى) وجيزة . وللتصريع في اوائل القصائد طلاوة وموقع حسن في النفس تستدل على القافية من الشطر الاول وقبل الوصول اليها كما يحصل في البيت ازدواج في صيغتي العروض والضرب .. وتماثل في المقطع .(١٠٤) .

ولا يخلو الابداع في المبادىء من يكون راجعا الى اللفظ وما فيه من حسن مادة واستواء نهج ولطف انتقال وتشاكل وايجاز . او ان يكون راجعا الى المعنى من حسن محاكاة ونفاسة مفهوم وانسجام الغرض او ان يكون راجعا الى النظم وما فيه من احكام بينة او ابداع صيغة .

والابداع على هذا يعود الى اللفظ او الى المعنى او الى النظم .. او اليها جميعا وهناك ثلاث مراتب للحسن والجودة . فالمرتبة الاولى ان يكون المصراعان جيدين والبيت الثاني لاحقا لهما في الحسن والجودة .

والمرتبة الثانية ان يكون المصراعان جيدين دون البيت اللاحق لهما

---

(١٠٢) السابق ٢٩٣ ، ٣٥٨ ، ٣٦١

(١٠٣) السابق ٢٠٣

(١٠٤) السابق ٢٨٢

والمرتبة الثالثة ان يكون المصراع الاول كامل الحسن ولا يكون المصراع الثاني متأخرا له . وان لم يكن مثله في الحسن .(٣٥)

وتتحدد بالطبع معاني المطالع بطبيعة الغرض الذي من اجله تنظم القصيدة .

اما حسن التخلص فضروري لحفظ تماسك القصيدة وترابط اجزائها . وقد لاحظ معظم النقاد ان المحدثين احسن مأخذا في التخلص والاستطراد من القدماء . والمبدأ المعتمد في هذا الشأن ان يكون الخروج من غرض لاخر غير منفصل بعضه من بعض فلا يختل نسق الكلام . ولا يظهر التباين في اجزاء النظام(٣٦)

ويفسر حازم الانتقال من فن الى فن اخر مباين له من غير جامع ملائم تفسيرا نفسيا ذلك ان النفس تجد نفورا في الانتقال من موضوع الى اخر . وتكون بمنزلة السائر في طريق سهلة . ثم يعرض لها بعدها ماينقلها الى حالة الحزونة او الخشونة .(٣٧)

وأحسن انواع التخلص ماكان متدرجا . اما الذي هو من غير تدرج فهو الاستطراد) . والتدرج في المعاني هو الانتقال من غرض الى آخر من غيرتشتت في الكلام ولايحصل هذا الا بقوة الطبع وكمال الفكر . وهذا مايسعى اليه (المقصدون) من الشعراء وبعكسهم (المقطعون)(٣٨)

ويستحسن ان تكون معاني اواخر القصائد مناسبة للغرض فالتهاني مناسبة للمديح والمعاني المؤسية مناسبة لقصائد الرثاء(٣٩)

ولا بد ايضا من ان تكون خواتيم القصائد مما يشعر السامع بالنهاية وان ليس بعد ذلك شيء . فالخاتمة ـ على مايبدو من كلامه ـ احساس اكثر منها شيء آخر وربما تكون الخاتمة حكمية او استدلالية لانها انسب والاحساس بالانتهاء معها اشد واقوى .

وكل الذي قدمه حازم في موضوع التحام اجزاء القصيدة . والتفسير السايكولوجي للهجاء جاء عند من سبقه من النقاد والبلاغيين حتى المصطلح فيما عدا مصطلح

---

(٣٥) السابق ٣٠٩ . ٣١٠ ـ ٣١١

(٣٦) السابق ٣١٧ . ٣١٨

(٣٧) السابق ٣١٩

(٣٨) السابق ٣١٩

(٣٩) السابق ٣٣٣ ـ ٣٣٤

(المقصد) و (المقصدون) ومصطلح (المقطع) و (المقطعون) فالاول يشير على مايبدو الى قوة الشاعرية وحدة الطبع .. وهذا مما يميز الشاعر الجيد من غيره . وهذه الشاعرية تمكنه من بناء قصيدة محكمة متماسكة . وعكس ذلك المقطعون الذين يفتقرون الى قوة الطبع لذلك تأتي قصائدهم غير متماسكة .

وحازم في كل الاحوال يبدو اقرب الى التصور العربي لمفهوم بناء القصيد منه الى مفهوم ارسطو في الوحدة التي تنتظم العمل الادبي .

الناقد :

مهمة الناقد الموازنة بين الشعراء وهي مهمة عسيرة لان الشعراء يختلفون فيما بينهم من وجوه عدة ، في البواعث والتخييل والمحاكاة والاحوال واللغة والرؤية والانماط والازمنة والامكنة .

فقد نجد شاعرا يحسن في النمط الذي يقصد به واللطافة والرقة . ونجد شعراء أهل زمان يعنون بوصف القيان والخمر وما ناسب ذلك وشعراء اهل زمان اخر يعنون بوصف الحروب والغازات.. وبعضهم يحسن في وصف الوحش.. وآخرون يحسنون في وصف الروض ، واخر يحسن في الفخر ولا يحسن في الضراعة .. الخ .(١١٠)

واذا كانت الحال على هذا فقد توقف بعض العلماء بالشعر من القطع بحكم على شاعر .(١١١)

ثم ان الحكم للشاعر المتقدم على الشاعر المتأخر غير صحيح ايضاً (لانه قد يتأخر اهل زمان على اهل زمان ثم يكونون اشعر منهم)(١١٢) وهذا موقف يذكرنا بما قاله ابن قتيبة في المفاضلة بين القدماء والمحدثين ، والله ـ سبحانه ـ لم يقصر الشعر على زمن دون زمن .

وقد تكون المسألة على نحو معكوس .. فقد نعى حازم على شعراء عصره ومن قبلهم ضعفهم وخروجهم عن مذاهب الفحول (فخرجوا بذلك عن مهيع الشعر ودخلوا الى محض التكلم) .(١١٣)

---

(١١٠) السابق ٢٧٤ وما بعدها
(١١١) السابق ٣٧٦ ، ٣٧٥
(١١٢) السابق ٣٧٨
(١١٣) السابق ٠

ومع ذلك فالموازنة منهج سليم للحكم بين الشعراء .. وهو اسلم من غيره فيما لو اعتمد الناقد على جملة اتص كان الآمدي قد اجملها قبل حازم في كتابة (الموازنة) ويبدو ان حازما نقلها عنه . يقول حازم (... ولكن تكمن المفاضلة بين قولهما اذا اجتمعا في غرض ووزن وقافية)(١١٤)

ولا يمكن الموازنة بين شاعرين تهيآت لاحدهما وسائل قوم الشعر والاسباب الباعثة له .. وآخر لم تتهيأ له تلك الاسباب . كما لايجب ان نتوقف عند هذه المفاضلة بل نحكم حكما جازما للفئة الاولى (اذا لامناسبة بين الفريقين في الاحسان)(١١٥)

وتبقى مهمة الناقد بين نصين محددين في غرض واحد ووزن واحد وروي واحد .. ومن خلال ذلك يكشف الناقد عن الكيفية التي يأخذ فيها الشاعر في بنية نظمه وصيغة عباراته (وما يتخذه ابدا كالقانون) .. ويسمى حازم هذا بـ (المنزع) وهو من مصطلحاته الخاصة ويريد به (كيفية مآخذ الشعراء في اغراضهم وما يميلون . بالكلام نحوه ابدا ..) .

وخلاصة المنزع (انه ابدا لطف مأخذ في عبارات او معان او نظم او اسلوب)(١١٦) .. ان الكشف عن خصائص الشاعرين اللذين يخضعان للموازنة يمهد الطريق للحكم على شاعر دون آخر .

---

(١١٤) السابق ٣٦٦

(١١٥) السابق ٣٦٩

(١١٦) السابق ٣٦٥ ، ٣٦٦